العودة الروسيّة للبلقان؟ دراسة في حدود الفاعليّة الأمنيّة الإقليميّة الروسية في البلقان

Russia's Comeback in the Balkans? A study of Russia's regional Security actorness in the Balkans

آمنة مصطفى دلة

جامعة الجزائر 3 – ابراهيم سلطان شيبوط، الجزائر

a.mostefadella@univ-chlef.dz

تاريخ الاستلام: 2021/05/14 تاريخ القبول للنشر: 2021/05/24 تاريخ النشر: 2021/06/04

ملخص:

تبحثُ المقالة في طبيعة الفاعليّة الأمنيّة الإقليميّة لروسيا في البلقان، فاعليّة كما نجادل تحكّم في رسم مسارها عاملين رئيسيين هما؛ **أولًا**، فكرة *'الهويّة الوطنيّة' لروسيا* وسرديّاتها العديدة التي أكّدت الفرادة الروسيّة العرقيّة والدينية والثقافيّة. **وثانيًا**، الاعتماد الروسي على تشكيلة من الأدوات العسكريّة والاقتصادية والرمزيّة لتحقيق فكرة الأمن الإقليمي في البلقان. توضيحًا لذلك، اعتمدنا تقسيمًا ثنائيًا للمقالة، نتعرّض في قسمها الأول لأهم سرديّات الهوية الوطنية لروسيا، أما القسم الثاني نتعرّض فيه للاستجابة الروسيّة لقضايا الأمن الإقليمي البلقاني منذ بداية الألفية (2000)، وكيف أنّ روسيا استغلّت هذه السرديّات لتثبيت حضورها الإقليمي في البلقان.

الكلمات المفتاحية: روسيا؛ البلقان؛ الأمن الإقليمي؛ الهوية؛ الحرب الهجينة.

Abstract:

This article examines Russia's Regional Security Actorness and argued that it is based on two pillars: the idea of Russia's national identity and its multiple narratives that confirmed Russia's ethnic, religious and cultural uniqueness, and Russia's reliance on a variety of military, economic and symbolic tools to achieve *Balkans regional security* idea. We will clarify this argument as follow. Firstly, we take a look at these narratives, then we analyze Russia's response to regional security issues in the Balkans since 2000, and how these narratives have been used to establish Russia's regional presence in the Balkans.

key words: Russia; Balkans; Regional Security; Identity; Hybrid War.

1.مقدّمة:

عبر تاريخها الممتد، لطالما اعتبرت روسيا نفسها جزءًا ثابتًا من معادلة الأمن الإقليمي في البلقان، سواء روسيا القيصريّة أو السوفيتيّة أو ما بعد السوفيتيّة الحديثة. والأمر كذلك ليس فقط بسبب قربها الجغرافي أو روابطها التاريخيّة والعرقيّة والاقتصاديّة مع الدول والشعوب البلقانية، ولكنّه أيضًا ادّعاءها أنها قوّة دوليّة بغض النّظر عن طبيعة ومصدر قوتها. هذه المنزلة التي ادّعتها روسيا تفترض تجهيزها المسبق لأجندة عمل مع كل ما يقع خارج حدودها، بالمعنى الجغرافي أو الإيديولوجي، سواءٌ الخارج القريب أو البعيد. لكنّ الملاحظ في حالة روسيا أنّها، وعلى خلاف باقي القِوى الدوليّة، شكّلت تحديًا إبستيميًا للباحثين بسبب سلوكياتها الدوليّة والإقليميّة، محفزاتها والغاية منها، ومعايير تصنيفها قوّة دوليّة مقارنة بالولايات المتحدة أو اليابان أو كل من اعتلوا هرم القوة العالمي. فروسيا دائمًا ما تُجبرنا على تعديل أُطرنا النظريّة والتحليليّة حتى نتمكن من تقديم فهمٍ جيّد وشامل لها؛ *في الحقل الدولي مثلًا*، يمكن المُحاججة بأنّ 'الدراسات البِنائية للسياسة الخارجيّة الروسيّة والسوفيتيّة'، لعبت دورًا مهمًا في صعود وارتقاء البِنائيّة الاجتماعية كأحد أهم المقاربات الدوليّة.

وفي *الدراسات الأمنيّة كذلك*، لعبت الأزمات التي اندلعت في الفضاء السوفييتي السابق، دورًا كبيرًا في الدفع بزخم عمليّة 'التوسِعة والتعميق للمواضيع المرجعيّة ولقطاعات الأمن'، أهم حدثٍ معرفيّ أقدَمَ عليه باحثو الأمن النقديين. فقد لاحظ هؤلاء أنّ 'الأمن' لم يَعُد 'مفهومًا ثابتًا' محصورًا في ثنائيّة الدولة باعتبارها مرجعًا رئيسيًا للأمن، ولا 'القضايا العسكريّة' باعتبارها التهديد الرئيس للدول، لكنّه أصبح 'متغيّرًا' يمكن أن يحمل معاني ودلالات عديدة لمختلف الفاعلين وفي مختلف الأزمنة.

ما يهمنا من هذه التعديلات، أنّها ستكون الأرضيّة التي سننطلق منها لتقديم منظور جديد لتحليل الأدوار الأمنيّة لروسيا في البلقان، خاصة بعد جِدال كثيرين بأن الروس لم يعد لهم حضورٌ هناك بسبب تفكك الاتحاد السوفيتي وانهيار كافة الكيانات الإقليميّة التي اعتمد عليها لمدِّ نفوذه في الإقليم، 'كالأخوّة العماليّة' أو الاشتراكية التي أصبحت مقترنة بالتخلّف الاقتصادي وبالاستبدادية، وكذلك في الجانب البلقاني بسبب التفكّك العنيف ليوغسلافيا وما نتج عنه من ظهور لدول جديدة، وبالتالي منظومة تحالفات وعلاقات جديدة، والأهم من ذلك الحُضور القويّ للقوى الغربيّة في الإقليم قيميًا ومؤسّسيًا؛ قيميًا، أيّ أنّ 'الديمقراطيّة الليبراليّة' أصبحت الثيمة الجديدة التي فرضت نفسها على روسيا وعلى أغلب دول البلقان، ومؤسّسيًا، شهدنا فتح الدول الأوروبيّة المجال لدول البلقان للانضمام إلى مختلف مؤسساتها سواء الاقتصاديّة والسياسيّة كالإتحاد الأوروبي أو الأمنيّة كالحلف الأطلسي.

أما المقالة، وخلافًا لذلك، تجادل بأنّ هذه المتغيّرات الطاردة لأي دورٍ روسيّ محتمل في البلقان لم تمنع ظهور نمطٍ جديد من أنماط الفاعليّة الإقليميّة في شؤون الأمن الإقليمي البلقاني، فاعليّة كما نجادل تحكّم في رسم مسارها عاملين رئيسيين هما؛ **أولًا**، فكرة *'الهويّة الوطنيّة' لروسيا*، وكيف أنّها أصبحت متغيّرًا حاسمًا لتفسير الانخراط الروسي في الإقليم. 'فالهويّة الوطنيّة'، وإن هاجمها كثيرون

بإدعائهم أنّها مفهومٌ غامض ومعقّد لا يمكن تعريفه، ويمكن للباحثين الراغبين في تأكيد فرضياتهم بشأن سياسة الدولة التلاعب به، لكنّ التوظيف المستمر للقادة الروس لهويتهم الوطنيّة، خطابيًا وعمليًا، واتجاههم صوب 'أمننتها'، جعلت من تجاهلها أمرًا غير مستساغًا أثناء عمليّة التحليل. تلك الهويات المتعدّدة التي منحها القادة الروس لدولتهم، تكمن وظيفتها الرئيسيّة في إضفاء المعنى على الأهداف التي تنشد تحقيقها سلوكيّات الفاعلين الاجتماعيين داخل الدولة، تساعدهم على إعادة ترتيب مختلف الموارد المادية التي تحوزها دولهم من تاريخ وجغرافيا وذاكرة جماعيّة ضمن إطار زمني ومكاني معيّن؛ أو كما لخص ذلك ستيفن كراسنر بقوله *'السؤال عن الطريقة التي أُعظم بها مصلحتي الذاتيّة ليس مهمًا بقدر الطريقة التي ينبغي عليّ أن أتصرّف وفقها طبقًا لتعريفي لذاتي ولما أمثّله'*.(Freire & Kanet, 2012, p. 20)

وثانيًا، الاعتماد الروسي على تشكيلة من *الأدوات العسكريّة والاقتصادية والرمزيّة (التاريخيّة/الثقافيّة/الدينيّة)* لتحقيق فكرة الأمن الإقليمي في البلقان، ناهيك عن أنّها استحدثت *ربطًا عُضويًا بين أمنها القومي وأمن الإقليم*، ولعلّها أهم سمة ميّزت انخراطها في الشؤون الأمنية للبلقان.

وعليه، وتوضيحًا لذلك، اعتمدنا تقسيمًا ثنائيًا للمقالة، نتعرّض في قسمها الأول لأهم سرديات 'الهوية الوطنية لروسيا'، نوضح من خلاله الروايات العديدة التي اعتمدتها روسيا لتأكيد فرادتها العرقيّة والدينيّة والثقافيّة، أما القسم الثاني فسنتعرّض فيه للاستجابة الروسيّة لقضايا الأمن الإقليمي البلقاني منذ بداية الألفية (2000)، وكيف أنّ روسيا استغلّت سرديات هويّتها الوطنيّة لتثبيت حضورها الإقليمي في البلقان.

2. في أساسيّات الهويّة الروسيّة

طرحت الباحثة آن كلونان سؤالًا مركزيًا: *لماذا يعتبر السعي لتحصيل منزلة القوة الكبرى مهمًا لفهم السياسة الأمنيّة الروسيّة؟*وأجابت بقولها؛ إنّ السلوك الأمني لروسيا مُستمدٌ من مخاوف القادة الروس بشأن منزلة دولتهم كقوة كبرى في الخارج وكدولة سياديّة في الداخل، وعلى أنّه محصّلة التفاعل بين بحثهم عن هويّة ما بعد سوفيتيّة والنقاشات الحاصلة في الداخل الروسي حول الارتباطات الوظيفيّة بين أمنهم الداخلي وأمن الدولة في الخارج، فحيازة دولتهم 'منزلة القوة الكبرى' أمر حاسم للإحساس الروسي بالأمن، هي البوصلة التي تستند عليها مقاربتها لقضايا مختلفة كمراقبة الأسلحة النووية، توسّع الحلف الأطلسي وحربها في أوكرانيا وسوريا إلى تدخلها في الانتخابات الشيشانيّة. لذلك، تعتقد آن أنّه في خضم سعي روسيا الدائم هوية وطنيّة، تظل منزلة القوة الكبرى عنصرًا موحدًا ومشتركًا، وبأنّ فهم القيمة العمليّة لهذه المنزلة داخليًا وخارجيًا بالغ الأهميّة لشرح المفاهيم والسلوكيّات الأمنيّة لروسيا. (Clunan, 2019, p. 4-5)

المنزلة 'Status' التي تحدّثت عنها كلونان تشير في أصلها إلى سعي الدول للحصول على الاعتراف الرمزي أكثر منه المادي بمشروعيّة امتلاكها سلطة ما، هي حول القيمة الاجتماعية التي تريد أن ينسبها مواطنوها إليها في الداخل، ومتجذّرة في التقييمات التي تقدمها دول أخرى لها تشاركها المنظومة الدوليّة. في الحالة الروسيّة، سنلاحظ أن روسيا خاضت عبر كل تاريخها القديم والحديث في مفاهيم السيادة، هويتها

الوطنيّة والدوليّة، واتخذت في ذلك حججا مختلفة منها الدينيّة، العرقيّة والايدولوجيا وغيرها. السيادة التي تحدّثت عنها روسيا لا تختزل في معناها البسيط بكونها 'سلطة عليا داخل إقليم معين'و لكنها ذات أبعاد أربع كما حاجّ ستيفن كراسنر في عمله المرجعي *'السيادة: الرّياء المنظم'*؛ سيادة قانونيّة دوليّة حيث تعترف الدول ببعضها البعض؛ سيادة ويستفاليّة تشير إلى السيطرة الحصريّة على الشؤون الداخليّة لدولة ما واستبعاد أي هياكل سلطة خارجيّة من عمليات اتخاذ القرار الداخليّة؛ سيادة محليّة تشير إلى ممارسة فعّالة للسلطة داخل الدولة؛ وسيادة الاعتمادية المتبادلة التي ترتبط بالقدرة على تنظيم الانتقالات وعبر الحدود وفقدان السيطرة نسبيًا بسبب تأثيرات عالميّة كالعولمة.(Krasner, 1999)

في الجانب الديني؛

كانت البداية مع السرديّات الدينيّة المختلفة التي ظهرت عَقِب سُقوط الإمبراطوريّة البيزنطيّة، وتقديم روسيا باعتبارها الوريث الروحي والشرعيّ لروما وللقسطنطينيّة، وبالتالي المُدافع الحقيقي عن العالم المسيحي، بل وثبُت التبنّي الروسي لاثنين من أكثر الفلسفات الإيديولوجيّة تعقيدًا في تاريخها ألا وهما 'عقيدة الخَلَاص' Messianism و'عقيدة الإيمان بالعصر الألفيّ' 'Millenarianism' اللتان تشيران في معناهما العام إلى وجود أمة مختارة ذات رسالة تاريخية، وبأنّ المعاناة الكبيرة التي تتحملها أمة ما ستؤدي بطريقة أو بأخرى إلى خلاصها وخلاص الإنسانية جمعاء.

في هذا الإطار يمكننا أن نُقدّم السرديات التاليّة التي قدّمتها روسيا لنفسها: سرديّة 'روسيا المقدّسة' (svyataya Rus)، سرديّة 'موسكو روما الثالثة' (Moskva Tretii Rim) وسردية 'الطريق الثالث'؛ أما السرديّة الأولى فقد استحدثها قائد المعارضة البويريّة كوربسكي في رسالته إلى القيصر إيفيان الرابع، عبّر من خلالها على قداسة الأرض الروسية وعن لا قداسة القيصر، لاحقًا أصبحت الأسطورة الوطنية الأكثر شعبية في روسيا في القرن السادس عشر، أشارت في البداية إلى الشعب الروسي المختار لكنّها لاحقا جسّدت مفهوم الدولة كامتداد للقيصر-الأب الصغير المتزوج من الأم المقدسة الروسية- هي وبعبارة أخرى مثّلت الإطار الديني لإضفاء الشرعية على النظام الملكي؛ أما سرديّة موسكو روما الثالثة في الرسالة التي كتبها الراهب فيلوفي إلى الأمير فاسيلي الثالث حوالي سنة 1523م ادّعى بأن الشعب الروسي هم الاسرائيليون الجُدد، وبأنهم شعبُ الله المُختار والأول من بين جميع الشعوب المسيحية ودعا إلى تحقيق مملكة المسيح على الأرض؛ أما سرديّة الطريق الثالث فظهرت في القرن الـ17م في كتابات المبشّر الكاثوليكي يوري كريزانيتش، حذَّرَ فيها روسيا من مغبّة الأوربة Europeanisation ومن القومية الروسية، ودعا إلى تطويرها لطريقها الخاص المخالف للحضارة الغربية (الرومانية) والحضارة (البيزنطية)، كما صاغ نوعًا من المحاكاة بين القيصر الروسي والإله ودعا إلى ضرورة أن تعزّز الدولة الروسيّة الشراكة بين الشُعوب السلافيّة. (Bouveng, 2010)

في القرن الثامن عشر، ظهرت سرديّات أخرى أكّدت الفرادة الروسيّة لكنّها كانت علمانيّة أكثر تصب في إطار المحاولات الأولى لعلمنة الدولة، كسرديّة 'أسطورة الجنة"التي أضفت الشرعيّة على المنصب

السياسي للقيصر الروسي، وتزامنت الأسطورة مع الإصلاحات ذات الطابع الأوروبي التي أدخلها بيتر الأكبر والذي وضع علامة فارقة في كل التاريخ الروسي بترجيحه لكفة أوروبا لدى إجابته عن سؤال الهوية الروسية، كما حدث في هذه الفترة على غرار انتقال العاصمة من موسكو إلى سانت بيطرسبرغ بما قوّض السرديات الدينية السابقة الإصلاحات التي قام بها البطريق نيكون وحدوث ما عرف"بالانشقاق الكبير" (راسكول)، كل هذا مثّل بداية الصدع العميق بين السكان الروس الحضر والريف، بين النخبة والجماهير لينقسم الخَطَاب العقدي وفقًا لذلك بين "الألفيّ" عند عامة الناس و"العلمانيّ" بين الكنيسة والدولة والمثقفين . جمعت هذه السرديّة بين تقاليد دينيّة ظهرت خلال عصر النهضة الأوروبيّة-كالإرث الكلاسيكي لعصر استرايا أستريا هي إلهة البراءة في الأساطير اليونانية، ابنة جبابرة أسترايوس إلاه الغسق ويوس إلهة الفجر واسمها يعني "نجمة العذارى" وكانت على الأرض إلى جانب البشر خلال ما عرف بالعصر الذهبي للإنسان. (Titunik, 1993, p. 381-382)

في الجانب العرقي؛

سرديّة أخرى كانت أكثر ارتباطًا بالعرق كالسلافوفيلية Slavophile والوحدة السلافية Pan-Slavism اللتان عبّرتا عن تناقضٍ هَوِيَتي عميق بين الدونيّة المتطرّفة والتفوّق المتطرّف الذي كانت تُحسُ به روسيا اتجاه أوروبا في إطار ما عرف تقليديًا بالنقاش السلافي-الغربي الذي كان منطلقه أي النماذج الواجب إتباعها لإدارة الحكم وللهويّة الروسيّة، الأوروبي أم الروسي المميّز. كتّابٌ بارزون مثّلوا علامة فارقة في الجمع بين السلافوفيلية وعقيدة الخلاص الروسيّة أمثال فيدور دوستيفسكي وكونستانتين ليونتيف ونيكولاي فيودوروف وفلاديمير سيرجيفيتش سولوفيوف؛ دوستيفسكي مثلًا عزّز وأضفى الطابع الفلسفي على العديد من السرديّات المسيّسة لخطاب عقيدة الخلاص الروسيّة، بما في ذلك المهمة التي تتحملها روسيا الأرثوكسيّة لإنقاذ البشرية ، كما عبّر عنها إضافة الى تشبيهه معاناة وتواضع الشعب الروسي الذي يضحّي لإنقاذ أوروبا من نفسها بالمسيح وبعالمية الرجل الروسي وغيرها من التوصيفات، بل أن معاداة السامية التي تبنّاها دوستيفسكي وجدت صداها فترة حكم الكسندر الثالث (1881-94) ونيقولا الثاني (1894-1917) اللذان سعيا لتعزيز حكمهما من خلال تعزيز الشوفينية الروسية والتأكيد على الطبيعة الأرثوذكسية للدولة. حيث اتهم اليهود باغتيال الكسندر الثاني كما نشر سنة الـ1903 قصصا عن مؤامرة يهودية مفترضة للسيطرة على العالم بما في ذلك بروتوكولات حكماء صهيون؛ ليونتيف ادّعى انتمائه للسلافية بالمعنى الثقافي مؤكّدا على القوة الأخلاقية للأرثوذكسية وتراجع الغرب؛ فيودوروف أيّد الأرثوذكسية والاستبدادية وهاجم الرأسمالية بسبب طبيعتها المقسّمة للإنسانية كما انتقد اشتراكية بريطانيا ليس لارتباطها بالإلحاد كما فعل دوستويفسكي ولكن لأنها أدّت إلى تعزيز كراهية الفقراء للأغنياء. (Duncan, 2000, p. 34-46)

في الجانب الإيديولوجي؛

الاشتراكية، بدورها كمنظومة فكرية وقبل ولوجها روسيا، جادل عديدون بأنّها حملت ثقلًا عقديًا بسبب الربط الذي استحدثه كارل ماركس بين تحرّر الإنسانيّة وتحرّر البروليتاريا، وبعد ولوجها عزّزت

فرادة روسيا وتميّزها ليصبح الإتحاد السوفيتي حامل لواء الرسالة التاريخيّة للاشتراكية في مواجهة الامبرياليّة الغربيّة، بل والوصيّ والحامي لها في العالم. فقد ذهب أناتولي لوناشارسكي إلى حد القول بأنّ الاشتراكية مثّلت الدين في أسمى تجليّاته، لأنّها تُرضي التوق العالمي للعدالة والحق الذي تَعِد به الأديان في الآخرة، كما شبّهَ الاشتراكية بالأخرويات المسيحيّة Christian eschatology؛ حيث شبّه مُعاناة البروليتاريا بمعاناة المسيح عليه السلام والثورة الاشتراكية بيوم الميعاد والاشتراكية بحُكِمِ المسيح الألفي على الأرض. (Rowley, 1999)

في الجانب القومي؛

أما روسيا ما بعد السوفيتيّة، فقد وثّقت كذلك فرادتها وتميّزها ولكن بطريقة مختلفة، هي ورُغم اتفاق الجميع على أنّها أصبحت لاعبًا قويًا جيوسياسيًا واقتصاديًا وعسكريًا، لكنّها لم تتمكن بعدُ من التوصل إلى تسويّة مرضيّة بشأن هويّتها الوطنيّة هل هي أوروبيّة أم أوراسيّة أم أنّها همزة وصل بينهما، ولم تتمكن من التوصل إلى اتفاق معيّن بشأن طبيعة ومدى ومصادر قوتها الدوليّة، وبالتالي طبيعة مصالحها الوطنيّة. في هذا الإطار، يبدو أن تقسيمًا منهجيًا كالذي اعتمده الباحث كريستيان ثورون لتفسير أوجه الاستمراريّة والتغيير في خطابات القادة الروس المتعلّقة بالهويّة الروسيّة وبمكانتها الدوليّة ومصالحها الأوليّة سيكون مفيدًا في هذا الشأن.

لقد ذكر ثورون بأنّ الطريقة التي أدرك بها القادة الروس لطبيعة المجال الدولي أثّر بصورة كبيرة على تعريفهم لهوية روسيا، دورها ومكانتها العالمية وكيف يمكن لكلِّ ذلك أن يخدم مصلحتها الوطنيّة على أفضل وجه. وفي ذلك جادل بأنّ الأفكار الجماعية التي شكّلت الأساس الذي اعتمده القادة الروس لتوجيه السياسة الخارجيّة الروسيّة تغيّرت أربع مرات من تبنيهم للأفكار الليبراليةّ (1992-94/1993) إلى أفكار الواقعيّة الجيو-سياسيّة (94/1993-2000) إلى الواقعيّة الجيو-اقتصاديّة البراغماتيّة (2000-2004) إلى الواقعيّة الجيو-إستراتيجية الثقافيّة (2004-2007). تبعًا لهذه الأفكار الجماعيّة، قدّم القادة الروس أربع أصناف للمكانة الدوليّة لروسيا من كونها 'قوّة كبرى عاديّة' إلى 'قوة أوراسيّة كبرى' إلى 'قوة كبرى مسئولة' إلى 'قوة كبرى مستقلّة'.(Thorun, 2009, p. 8-12)

باحثون آخرون مهتمون بتأثير العقائد الإيديولوجية في تشكيل السياسة والهوية الروسيّة، جادلوا بأن القيادة الروسيّة الحاليّة تسترشد بالأوراسيانيّة كعقيدة فلسفيّة وإيديولوجية مُحافظة، كالباحثة ماريا إنغستروم التي حاولت اكتشاف العلاقة بين المفهوم الجديد للسياسة الخارجية الروسية الذي صادق عليه الرئيس بوتين في فيفري 2013 وعقيدة الخلاص الروسيّة، حيث جادلت بأنّ التيّار المُحافظ الجديد الذي تبنّى بوتين معظم أفكاره(Engström, 2014, p. 360) استند إلى العناصر الإيديولوجية الثقافية والسياسية لمفهوم كاتشون 'Katechon' كأساس لإيديولوجية الدولة الجديدة في روسيا وسياستها الخارجية والأمنية. آخرون اعتبروا الكسندر دوغين، رائد المدرسة الأوراسيانيّة التوسعيّة، العقل المفكّر لبوتين عنوان المقال الذي نشره أنطون باربباشين وحنة توبورن *'عقل بوتين:*

الكسندر دوغين والفلسفة الكامنة من وراء غزو بوتين لشبه جزيرة القرم' (2014)، هي حجة وإن كانت على قدرٍ من الضعف إلا أنّ روسيا لن تجد عقلًا راديكاليًا مدافعًا بطريقة مناورة عن الأسبقيّة الروسيّة في العالم أحسن من دوغين. ما يهمّنا من كل هذه العقائد، لا استمراريّة حضورها من عدمه، لأنّ تاريخ الدول يبلغ عن تقديم سرديات وتبريرات مماثلة لأي أمّة تبغي الارتقاء في سلّم هرم القوة العالمي، ولكن التنازع في أصله كان حول أي النُعوت هو الأدق لتوصيف طبيعة القوة الروسيّة. ولعلها نُعوت تؤثّر بدورها على تعريف روسيا للفضاءات الإقليمية المجاورة لها، على أهميتها ودورها في تعزيز المصالح الروسيّة وبالتالي ستكون عاملًا محددًا لدرجة انخراطها الإقليمي من عدمه.

3- الاستجابة الروسيّة لقضايا الأمن الإقليمي البلقاني منذ بداية الألفية (2000)

إنّ التحدي الرئيسي الذي أصبح يواجه المصالح الإقليميّة لروسيا في البلقان هو 'عمليّة التوسِعة التي قام بها الحلف الأطلسي لضم دول البلقان'، الأمر الذي أكّدته جُل مفاهيم الأمن القومي لروسيا وعقائدها العسكريّة التي صدرت منذ سنة 2000؛ حيث أكّدت وثيقة 2000 على أنّ إضعاف النفوذ الروسي السياسي والاقتصادي والعسكري في العالم، وتعزيز التكتلات والتحالفات العسكريّة السياسيّة وتوسّع الحلف شرقًا لهي من بين التهديدات الرئيسيّة في المجال الدولي، نفس الأمر أكّدته وثيقة 2009 لكنّها وضعت التوسعة في خانة التهديدات المقوّضة للأمن القومي الروسي مباشرة، كما أشارت إلى أن روسيا لن تقبل باستدامة الهندسة الأمنيّة الإقليميّة والعالميّة التي يقوم الحلف بتشييدها، واستمرت وثيقة 2016 على نفس النهج. (Ministry of Foreign Affairs of the Russian Federation, 2000)

عمليّة التوسعة التي باشر بها الحلف، والتي كانت في أغلبها بطلبٍ من دول البلقان، كشفت من ناحية عن الرغبة الشديدة لهذه الدول للابتعاد عن الفلك الروسي أمنيًا وعسكريًا، سواء بلغاريا ورومانيا التي أصبحت عضوا خلال الفترة الممتدة من 1999-2004 أو كرواتيا وألبانيا (2009-2017)، وحتى دولة الجبل الأسود، ورُغم تحذيرات روسيا، إلا أنّها انضمت إلى الحلف سنة 2017 بعد ثمانيّة أشهر من ضلوع المخابرات الروسيّة في محاولة الانقلاب العسكري واغتيال رئيس الوزراء آنذاك ميلو ديوكانوفيتش. الأمر الذي اعتبرته روسيا مشروعًا جيوسياسيًا بحتًا لا يمت بأي صلة لأمن الحلف الأطلسي، بل سيُسبب إنفاقًا إضافيًا من قِبل أعضاءه، وسيجعلهم مجبرين على دمج أراضي الدولة من الناحيتين التقنيّة والعسكريّة، وفق تصريح وزير الخارجية الروسي سيرغي لافروف.(Tomovic, 2007)

ومن ناحية أخرى، كشفت عن أساليب ضغط جديدة أصبحت توظّفها روسيا للضغط على دول الإقليم لتعزّز نفوذها مستغلّة في ذلك استياء الشُعوب والنُخب البلقانيّة من ركود دولهم الاقتصادي وعدم إحرازهم تقدم في عملية انضمامهم إلى الاتحاد الأوروبي، ناهيك عن التوترات العرقيّة المستمرة وكذا الروابط الثقافيّة والدينيّة التي نسجتها روسيا في الإقليم، لذلك اتجه أغلب الباحثين صوب توظيف مصطلح 'الحرب الهجينة' Hybrid War لتوصيف الانخراط الإقليمي لروسيا في البلقان.

لجوء روسيا إلى أساليب الحرب الهجينة ليس جديدًا، ولكنّه نفس الاتهام الذي وُجّه إلى الإتحاد السوفيتي سابقًا في خِضَم منافسته المُكثّفة مع الولايات المتحدة الأمريكيّة. فقد ثَبُتَ ضُلوع القادة السوفييت في عمليات التجسّس، الدبلوماسية القسريّة، ترويجهم لكل أنواع البروباغندا الرماديّة أو السوداء، تمويلهم للأحزاب السياسيّة ووكلاءهم في الغرب، سعيهم للتأثير على وسائل الإعلام الأمريكية والأوروبية، وإرسال المخابرات السوفيتيّة عملاءها لممارسة أنواع أخرى من النفوذ، والهدف من كلّ هذه العمليّات لم يكن التأثير في سياسة القوى الغربيّة، ولكن إحداث انقسام داخلها وخلافات بينها لإضعافها بشكل عام.(Chivvis, 2017, p. 316) وفي السياق البلقاني، جادل باحثون كُثُر بعودة روسيا لنفس الممارسة لتشويه صورة القوى الغربيّة خاصة المؤسسات الأوروبيّة وأمريكا، لكنّها هذه المرة استفادت من التطورات الكبيرة الحاصلة في مجال الإعلام والتقنيّة ومختلف الأدوات الإلكترونيّة التي يمكنها أن تغيّر الصورة السلبيّة التي ارتبطت بروسيا في أذهان شُعوب الإقليم، كما مكّنت روسيا من أن تُأثر بفعّاليّة أكبر في المشهد السياسي البلقاني. لذلك، سنحاول أن نبيّن الأدوات العديدة التي استخدمتها روسيا للتأثير على النظام الأمني البلقاني.

من *الناحيّة العسكريّة*، تجدر الإشارة إلى أنّ روسيا فقدت بنهاية الحرب الباردة أغلب الامتيازات العسكرية التي حصلت عليها خلال الحقبة السوفيتيّة في الإقليم البلقاني، وأنّها على خلاف دول أوروبا الشرقية والوسطى والقوقاز، لا تملك حضورًا عسكريًا دائمًا فيه. في يوغسلافيا، اقتصر الأمر على حق الولوج الذي نالته البحريّة السوفيتيّة إلى الموانئ اليوغوسلافية في تيفات وبييلا وكومبور التي تمثل اليوم الجبل الأسود، وهي لم تكن قواعد عسكريّة دائمة بل مجرد موانئ لإصلاح وتموين السُفن السوفيتيّة، وبعد انهيار يوغسلافيا، كانت هذه القواعد لا تزال تحت سيطرة صربيا والجبل الأسود وكانت لا تزال تسمح للسفن الروسية بأن ترسوا عليها. لكن ومنذ انفصال الجبل الأسود عن صربيا عام 2006، وإعلان قادة الدولة رغبتهم بالانضمام إلى الحلف الأطلسي، زادت المخاوف الروسيّة بشأن الإغلاق الكليّ لهذه الموانئ أمام السُفن الروسيّة وبالتالي إنهاء وجودها العسكري الضئيل في كل الإقليم. نفس الأمر يتعلّق بألبانيا التي سمحت بوجود عسكري سوفيتي محدود على أراضيها من خلال قاعدة باشا ليمان التي كانت القاعدة السوفيتيّة الوحيدة في البحر المتوسط، لكن السوفييت غادروها منذ عام 1962 كما انسحبت ألبانيا من حلف وارصو بعد غزو الأخير تشيكوسلوفاكيا عام 1968. (Goldmanis, n.d.)

رُغم ذلك، روسيا وبعد ضمها لشبه جزيرة القرم في 2014 وانخراطها العسكري في سوريا منذ 2016، حاولت أن تمارس ضغوطًا عسكريّة على الدول البلقانيّة المستقلّة سواء غير المنضمة للحلف الأطلسي، كالبوسنة والهرسك ومقدونيا، والتي لا تزال روسيا تحذر من مغبة انضمامها إلى الحلف، كما وصف ذلك وزير الخارجية الروسي سيرجي لافروف بأنّه أمر خاطئ ومستفز لروسيا، أو المنضمّة إلى الحلف كرومانيا وبلغاريا، إما من خلال أساطيلها العسكرية المتواجدة في البحور الثلاث المحاذية لهذه الدول، البحر الأسود وبحر ايجه وشرق المتوسط، أو من خلال استغلالها عدم تمكن الدولتان من الاستيفاء بمتطلبات

العضوية في الحلف، خاصة مسألة الرفع من نسب الإنفاق العسكري (2% من نواتجهما القومية) والتعاون العسكري والتنسيق وقابلية تبادل المُعدّات العسكريّة.

لقد أدركت روسيا جيّدًا بأنّ رومانيا وبلغاريا، وبسبب حالة الضعف الاقتصادي والعسكري والديمقراطي التي تعتريهما، تواجهان مشكلة تحديث معداتهما العسكريّة التي تعود للحقبة السوفيتيّة، بما يعني اضطرارهما للجوء إلى روسيا باعتبارها مورّدًا بديلًا للأسلحة. ففي الحالة البلغاريّة مثلًا، كثيرًا ما تم الجِدال بأنّ السياسة الدفاعيّة للدولة لا تتخذ مسارًا واضحًا. ففي الوقت الذي كان ينظر فيه الرئيس الرئيس البلغاري السابق روزن بليفنليف (2012-2017) بعين الريبة للأنشطة العسكريّة الروسيّة في منطقة البحر الأسود، مُعتبرًا ذلك تهديدًا للإتحاد الأوروبي، دافع الرئيس الحالي رومن رديف، الذي كان قائد سابق للقوات الجوية، لصالح منح دور أكبر لروسيا في المنطقة كما سعى للحفاظ على علاقات وطيدة مع روسيا وشركاءه الأوروبيين في نفس الوقت.(Wezeman & Kuimova, 2018) ناهيك عن ذلك، لا يزال العديد من البلغاريين، خاصة أنصار الحزب الاشتراكي، يؤمنون بأنّه من الأهميّة بما كان الإبقاء على علاقات جيّدة مع الروس وإظهار بعض الدعم لسياساتهم في المنطقة. كذلك، فقد ذكرت شركة روسوبورون اكسبورت الروسيّة بأنّ الدولتان، ومنذ عام 1992، تديران لجنة حكوميّة دوليّة للتعاون التجاري والاقتصادي والعلمي والتقني والتي تضم فريق عمل معني بالتعاون العسكري والتقني، كما أنّ العلاقات بينهما في هذا المجال يرتكز على صيانة الخدمات وتحديث المعدات العسكريّة السوفيتية التي لا تزال في مخزون القوات المسلحة البلغارية، و تشهد على ذلك اتفاقية صيانة وتحديث طائرات الهليكوبتر Mi التي وقعا عليها في 9 مارس 2012.(Rosoboronexport , n.d.)

أما صربيا، ورُغم تعاونها العسكري طويل الأمد مع الحلف الأطلسي في إطار برنامج 'الشراكة من أجل السلام'، إلا أنّها تعتبر شريكًا استراتيجيًا لروسيا في مجال الدفاع ولا تزال تحتفظ بعلاقات عسكريّة وثيقة معها تعزّزت أكثر بعد عام 2011 بتأسيسهما 'مركز حالات الطوارئ الإنسانية المشترك' في مدينة نيش الصربية، وتوقيع لرئيس الروسي فلاديمير بوتين ونظيره الصربي توميسلاف نيكوليك اتفاق الشراكة الإستراتيجية في سوشي في نوفمبر 2013، ووضع صربيا عضوًا مراقبًا في منظمة 'معاهدة الأمن الجماعي' (CSTO).(Bechev, 2017, p. 187)

مركز نيش، ورُغم أنّ وظيفته الرئيسيّة تتمثل في تقديم المساعدات وقت الكوارث-كالمساعدات التي قدّمها أثناء الطوفان الذي حل بصربيا وكرواتيا في ماي 2014، إلا أنّ الشكوك حول طابعه العسكري وليس الإغاثي لطالما كانت محل جدل منذ بداية عملياته عام 2012، فالروسي سيرجي شويجو الذي وقع على الاتفاق أصبح لاحقًا وزيرًا للدفاع، كما أنّ القرب الجغرافي لمدينة نيش من كوسوفو وبلغاريا عزّز شكوك إمكانيّة تحوّله إلى قاعدة عسكريّة دائمة لروسيا تتجسّس من خلاله على صربيا وعلى الدول البلقانيّة القريبة منها، ناهيك عن أنّ وزارة الدفاع المدني الروسية وحالات الطوارئ والقضاء على آثار الكوارث الطبيعيّة، الشريك المؤسّس للمركز، تملك بِنية شبه عسكريّة. (Bechev, 2017, p. 187) المركز، كذلك، كما ذكرت ماريا زاكروفا، المتحدّثة باسم وزارة الخارجيّة الروسيّة، لا يخضع لنظام ولكن لنظام

الحصانة الدبلوماسية، كما طالبت روسيا بأن يمنح عاملوها في المركز حصانة دبلوماسية كالتي تتلقاها قيادة الحلف الأطلسي في بلغراد وفقًا للاتفاقية التي وقعت بينهما في فيفري 2016. الإصرار الروسي لجعل المركز مكافئًا للمكانة التي يحوزها الحلف الأطلسي تدخل في إطار محاولتها وقف زحف الأخير الى صربيا ' NATO-ization" of Serbia'

الجانب الاقتصادي مهمٌ أيضًا، على محدوديّته، ولا يمكن إهماله من معادلة الانخراط الإقليمي الروسي في الإقليم. فمن بين جميع المؤشرات التي تُخبر عن المبادلات الاقتصادية بين دول البلقان وروسيا في القطاعات المصرفيّة أو التجاريّة أو العقاراتيّة أو الطاقويّة، لا يزال المؤشر الاقتصادي للقطاع الأخير هو الأكثر ارتفاعًا. فبعد التعزيز المالي لروسيا في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، لم تصبح روسيا فقط شريكًا اقتصاديًا مرغوبًا فيه في قطاع الطاقة البلقاني-انظر الجدول رقم 1-ولكن العديد من الشركات الروسيّة بدأت في الاستثمار في باقي القطاعات، ولعلّ أكبر الاستثمارات غير الطاقويّة من حيث الحجم والقيمة هي تلك الموجودة في الجبل الأسود. حيث صُنّف البلد ولسنوات باعتباره الوجهة السياحيّة والاستثماريّة المفضلة للأوليغارشيين الروس، ناهيك عن أنه محل الإقامة الدائمة لما بين 5000 و7000 روسي حسب السفارة الروسية في بودغوريتشا. (Tomovic, Russians Dominate Foreign Ownership of Montenegrin Companies, 2016) وخلال الفترة الممتدة من 2016-2019 صنّفت روسيا كأهم دولة مستثمرة هناك، حيث بلغ إجمالي تدفقات استثمارها الأجنبي المباشر 199.6 مليون يورو أو 8.3٪ من إجمالي تدفق الاستثمار الأجنبي المباشر.(Mirkovic, 2019)

جدول رقم1: جدول توضيحي لنسب اعتماد دول البلقان على منتجات الطاقة الروسية لسنة 2014

دول البلقان	الغاز	بترول خام
البوسنة والهرسك	٪100	
بلغاريا	٪92	٪84
كرواتيا	٪0	٪31
مقدونيا	٪100	٪0
رومانيا	٪25	٪50
صربيا	٪80	٪70

المصدر: (Bechev, 2017, p. 209)

في القطاعات الطاقويّة، لا تزال صربيا والبوسنة ومقدونيا تعتمد بشكل كبير على الغاز الطبيعي الروسي، كصربيا التي تعتمد على أكثر من 75 % من الغاز الروسي لتغطيّة احتياجاتها الطاقويّة، كما لا تزال الشركات الروسيّة تتحكم في إنتاج النفط والغاز وتدير مصافي التكرير وشبكة التوزيع؛ كشركة غازبرومنفت Gazpromneft التي سيطرت لأكثر من عقد على 'Naftna Industrija Srbije' أكبر شركة في صربيا؛ وفي ديسمبر 2018 اشترت شركة تابعة لجازبروم 51 ٪ من حصص الشركة الصربيّة بسعر 400

مليون يورو في إطار صفقة روسية صربية منحت موسكو حق السيطرة على قطاع الطاقة في هذه الأخيرة. (Kuczyński, 2019) كما تمتلك شركة النفط الروسية لوك اويل Lukoil مصفاة واحدة على الأراضي البلغارية، وهي أكبر منشأة من نوعها في البلقان، تقع في المرتبة الثانيّة بعد الموجودة في اليونان وتركيا، أما Lukoil Neftohim فهي أكبر شركة نفط روسية في بلغاريا تتحكم في مبيعات الوقود بالجملة والتجزئة، ولديها حصص كبيرة في صربيا ومقدونيا.(Kuczyński, 2019)

الإقليم البلقاني، كذلك، لا تزال روسيا تنظر إليه باعتباره طريقًا رئيسيًا لنقل طاقتها إلى أوروبا، ورُغم قرارها إلغاء مشروع خط أنابيب غاز "ساوث ستريم" الذي كان يستهدف نقل الغاز الروسي إلى أسواق غرب أوروبا عبر البحر الأسود وبلغاريا، والذي كان بمثابة نكسة لعلاقاتها مع دول البلقان (Bieri, 2015, p. 2)، خاصة بعدما شاركت كل من بلغاريا وصربيا في المشروع بين عامي 2006 و 2015 إلى جانب البوسنة والهرسك ومقدونيا، إلا أنّها روسيا لا تزال تعتزم تعزيز نفوذها الطاقوي في الإقليم من خلال مشاركتها في خط الأنابيب التركي (TurkStream). هذا التركيز الروسي الكبير على قطاع الطاقة لا يُعزى فقط إلى كون أسعار النفط والغاز العامل الوحيد المؤثّر على الاقتصاد الروسي، كما بيّنت الدراسات التي قارنت بين التغييرات في إيرادات الميزانية الموحدة لروسيا مقابل أسعار النفط الخام وفقًا لمؤشّر تكساس إنترميدييت، والتي أثبتت تزامن منحنياتهما-انظر المنحنى رقم 1- ولكن القطاع أصبح أحد ركائز الأمن القومي لروسيا؛ ذكرت وثيقة ذكرت وثيقة الأمن القومي الروسي بأنّ *'روسيا تسعى لاتخاذ تدابير لضمان وضع الاتحاد الروسي كبلد عبور رئيسي في سياق العلاقات التجارية والاقتصادية بين أوروبا ومنطقة آسيا والمحيط الهادئ، بما في ذلك زيادة مشاركتها في ممرات النقل العابرة للقارات التي هي الآن طور التكوين...كما تسعى لتقوية شراكتها الإستراتيجيّة مع المنتجين الرئيسيين لموارد الطاقة وتعزيز الحِوار مع بلدان العبور والبلدان المستهلكة للطاقة، لأنّه ولضمان أمن إمدادات الطاقة يجب أن يستكمل ذلك باتخاذ بتدابير متبادلة لضمان استقرار الطلب على الطاقة وممرات عبور موثوقة'*. (Minister of Foreign Affairs of the Russian Federation, 2016)

وعن أهميّة الإقليم البلقان ذكرت الوثيقة بأنّ *'روسيا تهدف إلى تطوير تعاون شامل براغماتي وعادل مع دول جنوب شرق أوروبا. فالإقليم البلقاني يتمتع بأهمية إستراتيجية كبيرة بالنسبة لروسيا، بما في ذلك دوره كمركز رئيسي للتنقل والبِنية التحتيّة المستخدمة لتزويد الدول الأوروبية بالغاز والنفط'*. (Minister of Foreign Affairs of the Russian Federation, 2016)

منحنى رقم 1: منحنى مقارن بين إيرادات الميزانية الموحدة لروسيا وأسعار النفط الخام وفقًا لمؤشّر تكساس إنترميدييت.

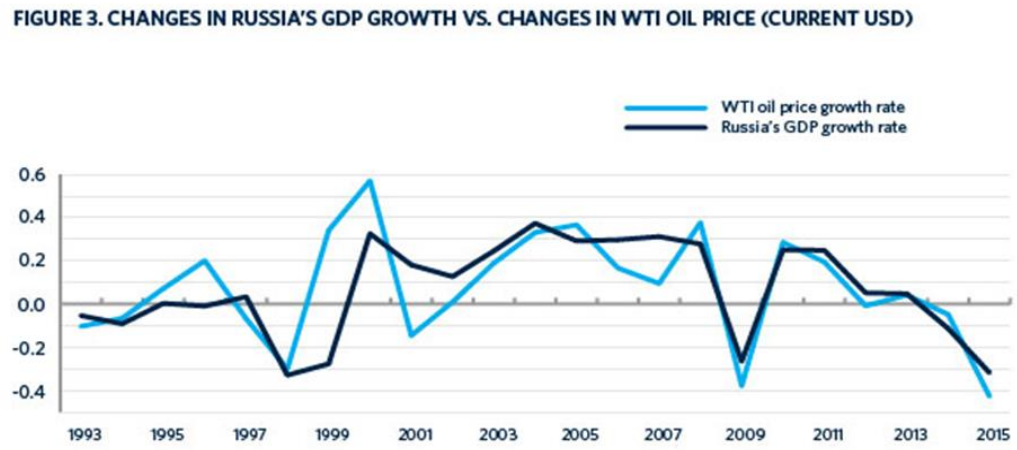

المصدر: (Movchan, 2015)

الإقليم البلقاني مهمٌ أيضًا لقطاع الطاقة الروسي، فلا تزال الشركة الروسيّة غازبروم تمارس احتكارًا في الإقليم-انظر الجدول رقم 2- بسبب محدودية البنى التحتيّة لعبور موارد الطاقة الموروثة التي تعود الى الحقبة السوفيتيّة؛ لا يزال يتدفّق الغاز الروسي إلى جنوب شرق أوروبا عبر ثلاثة طرق متوازية: (1) خط أنابيب عبر-البلقان الذي يمر عبر رومانيا وبلغاريا إلى تركيا مع وجود فروع له تمر إلى اليونان ومقدونيا؛ (2) عبر المجر إلى صربيا والبوسنة؛(3) عبر النمسا إلى سلوفينيا وكرواتيا. (Bechev, 2017, p. 202) ناهيك عن ذلك، المعرفة الروسيّة المُسبقة بحجم اعتماد دول البلقان الكبير على موارد الطاقة الروسيّة، جعلها تتلاعب باستمرار بقيمة العلاوات التي لا تزال تفرضها الشركة، وهو ما عرّضها لانتقادات عديدة من طرف هذه الدول ومن طرف مؤسسات الإتحاد الأوروبي، ولعلّ أشهر ها النزاع الروسي الأوكراني على أسعار الغاز عام 2006. فقد تأثّرت كلّ دول البلقان وجنوب شرق أوروبا بسبب قطع شركة غازبروم إمدادات الغاز لمدة أسبوعين في منتصف الشتاء؛ تأثّرت البوسنة والهرسك بشدة خاصة عاصمتها سراييفو التي تعمل بنظام التدفئة المركزية، فتركت المدينة دون إمدادات بديلة للوقود بينما عُزل مستهلكو الغاز المباشرون وأغلب المصانع في ضواحي المدينة، كما واجهت الحكومة البلغاريّة مشاكل عديدة بسبب محدوديّة أنواع الوقود البديلة التي تملكها وافتقار معظم المرافق العامة (شركات التدفئة بالمقاطعات والمشتغلين بالحرارة) لمستوى كاف من مخزونات الطوارئ من زيت الوقود الثقيل. (Kovacevic, 2009)

جدول رقم2: جدول توضيحي لصادرات غازبرزم من الغاز الطبيعي لدول البلقان لعام 2018

دول البلقان	صادرات الغاز الطبيعي (مليار مكعب)
البوسنة والهرسك	0.24
بلغاريا	3.17
كرواتيا	2.04
مقدونيا	0.16
رومانيا	1.32
صربيا	2.15

المصدر: (Gazprom Export, 2019)

التكتلات *التكتلات الاقتصادية* المدعومة روسيًا، كالإتحاد الاقتصادي الأوراسي، ورُغم توجيه روسيا دعوات الانضمام لأغلب دول البلقان، إلا أنّ صربيا هي الدولة الوحيدة التي وقّعت اتفاقيّة تجارة حرّة مع الاتحاد في أكتوبر 2019، أما مستويات قبول البقيّة فتبقى بين المنخفضة والضعيفة، وتعتقد روسيا بأنّ الدول الراغبة في الانضمام إلى الإتحاد وإلى الحلف يمكنها أن تنضم إلى الإتحاد الأوراسي في حال استغلّت روسيا فرصة تأجيل الإتحاد والحلف مفاوضات الانضمام، كما الحال مع البوسنة والهرسك وألبانيا، وحتى الأخرى المنضمة كليّة إلى العائلة الأوروبيّة، تعتقد روسيا بأنّ علاقاتها الجيّدة معها يمكن أن تدفعها للانضمام إلى الإتحاد كما مع بلغاريا، وحتى التي هي في خلاف حاد مع روسيا يمكن للأخيرة من خلال تقديمها الصين التي انضمت مؤخرًا إلى الإتحاد من أن تُقدم كوسيط تفاوضي تُفضله الدول البلقانيّة لتقنعها بالانضمام.

أدوات الدبلوماسية العامة التي عادة ما تستخدمها روسيا في أقاليم أخرى وظّفتها أيضًا في الإقليم البلقاني بدرجات متفاوتة، كمؤسسة "*العالم الروسي*" (Russkii Mir) أو "*المجلس الروسي للشؤون الدوليّة*" و"*صندوق الكسندر غورشاكوف للدبلماسية العامة*" أو "*الوكالة الفيدرالية لشؤون دول الكومنولث والمواطنون في الخارج والتعاون الإنساني الدولي*" "Rossotrudnichestvo" التابعة لوزارة الخارجية الروسيّة، والتي تملك فروعًا في جميع أنحاء البلقان؛ الوكالة الفدراليّة التي حلّت محلّ دار العلوم والثقافة السوفيتيّة السابقة في قلب مدينة صوفيا، مؤسسة العالم الروسي التي تملك فروعًا في جامعة بلغراد ومكتبة بلديّة صوفيا كما أنّها تدعم مخيّمات الشباب التي تُقام على السواحل البلغارية على البحر الأسود، و صندوق الكسندر غورشاكوف الذي يرعى عادة مجموعة من المؤتمرات والمناقشات والموائد المستديرة بالشراكة مع المعهد الروسي للدراسات الإستراتيجيّة، الملحق بالرئاسة الروسيّة الذي يملك مكتبًا في بلغراد. (Bechev, 2017, p. 230) هذا المعهد تم الجدال بأنّ أنشطة أجهزة المخابرات الروسيّة في البلقان تكثّفت بعد تأسيسه؛ فرئيسيه الجنرال المتقاعد ليونيد ريشيتنيكوف كان سابقًا رئيسًا لقسم تحليل المعلومات بجهاز الاستخبارات الخارجية، كما أنّه طوّر شبكة علاقات واسعة في اليونان

وبلغاريا حيث عمل سابقًا عميلًا للمخابرات السوفيتية، وحافظ على علاقات وثيقة مع عائلة الرئيس السابق ليوغسلافيا سلوبودان ميلوشيفيتش؛ ريشيتنيكوف وُجّهت له اتهامات عديدة، بضلوعه في فوز مرشح الرئاسة البلغاري المؤيد لروسيا رومن راديف، ومحاولة الانقلاب في دولة الجبل الأسود بعد تصريحاته العلنيّة بضرورة الإطاحة برئيسها ميلو ديوناكوفيتش. (Samorukov, 2019)

شبكة العلاقات الروسيّة في الإقليم البلقاني امتدت أيضًا لتشمل أحزابًا وجماعات يمينيّة متطرفة- انظر الجدول رقم 3- وتورطها في ممارسة التضليل الإعلامي وقدرتها على تشكيل المشهد الإعلامي بنشر السرديّات المعارضة للإتحاد الأوروبي وأمريكا في الإقليم. حيث زعم مراقبون أن روسيا متواطئة مع نوعين من الفاعلين؛ أولًا، مع الحركات الاحتجاجية والناشطين الاجتماعيين المدافعين عن قضايا البيئة خاصة المعارضين الذين احتشدوا ضد 'التكسير الهيدروليكي' في رومانيا وبلغاريا في عام 2012، وثانيًا، مع الأحزاب اليمينيّة واليساريّة المتطرّفة ومنظمات المجتمع المدني المعارضة للتواجد الأطلسي وللإتحاد الأوروبي في صربيا والجبل الأسود وبلغاريا واليونان.(Bechev, 2017, p. 192)

ففي صربيا مثلًا، دعمت روسيا الحزب الراديكالي والحزب الديمقراطي لصربيا وحركة دفيري Dveri وحركة 'أوبراز وناسي' Obraz and Nasi أحد أكثر الحركات تطرفًا والتي حظرت المحكمة الدستورية الصربية أنشطتها، ومجموعات أخرى كان قد استضافهم البيت الروسي في بلغراد مثل زافنيتشي ' Zavetnic وقوزاق البلقان Balkan Cossacks والذئاب الليليّة وغيرها. (Samorukov, 2019)إنّ الوظيفة الرئيسيّة لهذه الأحزاب المعاديّة لاندماج دولها مع المؤسسات الغربيّة Anti-Western والمروّجة لصالح التقارب مع روسيا Pro-Russia، هو استخدامها من طرف روسيا كورقة ضاغطة أو سبيلًا للإطاحة بالحكومات البلقانيّة التي تدعم الاندماج مع المؤسسات الأوروبيّة، كما الحال مع دولة الجبل الأسود. فللإطاحة بفريق عمل ميلو ديوكانوفيتش، اعتمدت روسيا على الحزب الديمقراطي الصربي اليميني الجديد الذي يتمتع بدعم كبير من الصرب ناهيك عن كونه حائزًا على نسبة تمثيليّة كبيرة في برلمان الجبل الأسود. (Samorukov, 2019)

وفي شمال مقدونيا، الدولة التي لم تعتبرها روسيًا جزءً من مصالحها الإستراتيجية العاجلة، أدانت روسيا تغيير اسمها واعتبرت الأمر تدخلًا من طرف الغرب بل ودعمت الحزب الديمقراطي للوحدة الوطنيّة الذي حكم بين عام 2006 وعام 2016، ورئيس الوزراء في تلك الفترة نيكولاي جروفسكي المحسوب على الحزب والذي واجه احتجاجات واسعة ضدّه بسبب الفساد وبقاءه في الحكم. الميزة الوحيدة لهؤلاء رُغم أنّ أجندتهم غير متوافقة تمامًا مع روسيا، إلا أنّ رفضهم لمسألة تغيير الاسم والتمثيل الألباني سياسيًا في البلاد جعلهم يحصلون على دعم الكرملن؛ فالمنطق الروسي يقضي بأنّ الإبقاء على زعيم استبدادي لمدة أطول في الحُكم سيعزل شمال مقدونيا عن الغرب وسيؤخر قدر الإمكان عمليّة انضمامها إلى الحلف. (Nikolovski, 2019)

جدول رقم3: جدول توضيحي لأهم الأحزاب البلقانيّة الداعمة لروسيا وللمو اقف الروسيّة في الإقليم البلقاني.

الدولة	الحزب	سنة التأسيس
الجبل الأسود	الحزب الديمقراطي الصربي اليميني الجديد New Serb Democracy Party(NOVA)	2009
شمال مقدونيا	الحزب الديمقراطي للوحدة الوطنية المقدونية VMRO-DPMNE party	1990
بلغاريا	حزب اتاكا Ataka party	
صربيا	الحزب الصربي التقدمي Serbian Progressive Party الحزب الصربي الراديكالي Serbian Radical Party حزب صربيا الغنية Rich Serbia party	2008 1991 2011
رومانيا	الحزب الديمقراطي الاجتماعي Social Democratic Party	2001
البوسنة والهرسك	تحالف الديمقراطيين الاجتماعيين المستقلين Alliance of Independent Social Democrats	1996
بلغاريا	الحزب البلغاري الإشتراكي Bulgarian Socialist Party حزب النهضة Vazrazhdane party	1990 2014

المصدر: من إعداد الباحثة.

الجانب الديني والعرقي أولى له القادة الروس أهميّة كبيرة باعتباره جزءًا أصيلًا من سياستهم الإقليميّة في البلقان. ففي الداخل الروسي قدّمت وثائق الأمن القومي الروسي '*التجديد الديني*' باعتباره السبيل الرئيسي للحفاظ على الهويّة الثقافيّة والدينيّة لروسيا، حيث نصّت وثيقة الأمن الوطني الصادرة عام 2000 على أنّ 'روسيا تواجه تهديدًا مزدوجًا؛ داخليًا بسبب الانتقاص من قيمة القِيم الدينيّة والتي عزّزت التوتر بين الأقاليم الروسيّة والمركز، وخارجيًا بسبب التوسّع الديني والثقافي لدول أخرى على الأراضي الروسيّة، لذلك اعتبر القادة الروس أن حماية الإرث الثقافي والديني والأخلاقي لروسيا وتخصيص الحكومة الروسية لسياسات تكون مهتمة أساسًا بمجال التعليم الديني والأخلاقي للشعب الروسي من

الإجراءات الرئيسيّة للحد من تأثير هذه المخاطر'. (Ministry of Foreign Affairs of the Russian Federation, 2000)

عمليًا، سعى المسئولون الروس لتعزيز علاقاتهم مع المسئولين الأرثوذكس المحليين، والقادة السياسيين والكنائس والجماعات المستقلة في كل من البوسنة وبلغاريا واليونان ومقدونيا والجبل الأسود وصربيا. فقد ثَبُتَ عمل بطريرك الأرثوذكس الروسي كيريل كمحاور رئيس بين كنيسته وباقي الكنائس في دول البلقان الأرثوذوكسيّة ومع الأقليات السلافية الأرثوذكسية في الدول غير المسيحيّة منها كألبانيا والبوسنة وكوسوفو. ولعلّ حج بوتين الشهير إلى جبل آثوس في اليونان عامي 2005 و 2016 مثّل تجسيدًا واضحًا للرغبة الروسيّة في استغلال الرمزيّة الدينيّة للجبل الذي يُعتبر ديرًا ومركزًا للتصوّف الأرثوذكسي لممارسة تأثيرها في الإقليم. خطاب الكنيسة الأرثوذكسيّة، من ناحية أخرى، يتماهى كثيرًا وخطاب الكرملين حول القيم الغربيّة-الأوروبيّة وعمليّة التكامل الأوروبيّة باعتبارها مثال آخر عن 'الإمبريالية المعيارية الغربية' التي تسعى لفرض قيم ليبرالية غريبة على المجتمعات المحلية لتمزّق نسيجها، ولعلّها أكثر الحُجج التي تُرافع عنها روسيا دوليًا.(Stronski & Himes, 2019)

تتمتع الكنيسة الأرثوذوكسيّة الروسيّة بسلطة خاصة في دول البلقان، في صربيا وخلال الحملة الجويّة التي شنّها الحلف على كوسوفو سنة 1999، قام بطريك موسكو أليكسي الثاني بزيارة بلغراد بهدف دعم الصرب المقاتلين، كما ساعدت روسيا على استكمال بناء كنيسة القديس سافا، أكبر كاتدرائيّة أرثوذكسية في صربيا تدعم الكنيسة الروسيّة الطوائف الأرثوذكسية المتبقية في كوسوفو، وغالباً ما تستضيف بطريركية موسكو الزعماء السياسيين الصرب خلال زياراتهم لروسيا. باقي الكنائس في البلقان فغالبًا ما كانت مواقفها مساندة ومشجعة لروسيا ولمواقفها في الشؤون السياسيّة والدينيّة البلقانيّة، كالتأييد العلني الذي حازت عليه الكنيسة الروسية بشأن استقلاليّة الكنيسة الأرثوذكسيّة في أوكرانيا من طرف بطريرك الكنيسة الأرثوذكسية الصربية بطريرك إيرينج وأسقف الجبل الأسود أمفيلوهيجي (Zivanovic, 2018)، وكذا الدعم الذي حازته من طرف هؤلاء بالإضافة إلى الكنيسة الأرثوذكسية البلغارية في إطار ما يعرف بالانشقاق الأرثوذكسي الكبير بين موسكو والقسطنطينية.

الخاتمة:

في معرِض حديثه عن البلقان، ذكر المحلّل البلغاري إيفان كراستيف بأنّ "*البلقان هي خاصِرة الدبلوماسية الألمانيّة، وهي أفضل مكان يمكن للروس أن يُمارسوا فيه ضغوطًا في حال أرادوا إزعاج الأوروبيين*' (Bechev, 2017, p. 6)، أما كورت فولكر، السفير الأمريكي السابق لدى الحلف الأطلسي ومبعوث واشنطن إلى أوكرانيا، فذكر في مقال له على مجلة الشؤون الخارجيّة : "*إنّ بلقانًا سائرًا في طريق الانضمام إلى أوروبا بثبات وبروّية من شأنه إزعاجُ روسيا الطامحة لأن تبقى أوروبا مقسّمة إلى مناطق نفوذ؛التي تسعى لتضفي الشرعيّة على أنظمة حُكم غير ديمقراطيّة وغير غربيّة؛ التي تسعى لخلق فرصٍ*

لتمارس نفوذها من خلال الفساد وصفقات الطاقة ومن خلال عمليات مخابراتيّة وتضليل معلوماتي. (Volker, 2018)

تُلخص الفقرتان، في الحقيقة، النظرة الثابتة للقادة الروس للإقليم البلقاني لا باعتباره ذي أهميّة إستراتيجية كبيرة مقارنة بباقي الأقاليم ما بعد السوفيتيّة الأخرى، ولكن باعتباره أداة يمكن استخدامها للضغط والتأثير على قوى دولية أخرى هي في صراع معها، سواء الدولة العثمانيّة سابقًا أو تركيا حاليًا، أو القِوى الغربيّة عمومًا التي تولها روسيا أهميّة قُصوى. وعليه، تجدر الإشارة في الأخير إلى أنّ أغلب اللحظات التاريخيّة التي شهدنا فيها انخراطًا أمنيًا روسيًا نَشِطًا في البلقان، بغضّ النّظر عن الركيزة القوميّة، الدينية، الاقتصاديّة أو العسكريّة التي اعتمدت عليها، لا يمكن فهمها بمعزل عن ذلك. فهي لا تزال تعتبر الإقليم البلقاني آخر المعاقل الأوروبيّة التي لم تندمج بعدُ في أوروبا الكبرى، ذلك أن انضمامها يعني خروجًا روسيًا كليًا من الإقليم وبقاءها خاضعة للمزايا الاقتصادية والعسكريّة والسياسيّة والثقافيّة للقوى الغربيّة.

References

Bechev, D. (2017). *Rival Power: Russia's Influence in Southeast Europe.* New Haven, CT & London: Yale University Press.

Bieri, M. (2015, March). The Western Balkans Between Europe and Russia. *CSS Analyses in Security Policy, 170*. Retrieved February 8, 2020, from https://www.google.com/url?sa=t&rct=j&q=&esrc=s&source=web&cd=&cad=rja&uact=8&ved=2ahUKEwiQ9pzFjcnwAhWnTxUIHVKkBfEQFjAAegQIAhAD&url=https%3A%2F%2Fwww.css.ethz.ch%2Fpublications%2Fpdfs%2FCSSAnalyse170-EN.pdf&usg=AOvVaw3tERJ315s2C6bMFTOSFDBD

Bouveng, K. R. (2010). *The Role of Messianism In Contemporary Russian Identity and Statecraft (Doctoral dissertation).* Retrieved from Durham e-Theses: http://etheses.dur.ac.uk/438/

Chivvis, C. S. (2017). Hybrid war: Russian contemporary political warfare. *Bulletin of The Atomic Scientists, 73*(5), 316-321 .

Clunan, A. L. (2019). Russia’s pursuit of great-power status and security. In R. E. Kanet, *Routledge Handbook of Russian Security* . NY: Routledge.

Contemporary Russian Messianism and New Russian Foreign Policy2014*Contemporary Security Policy3*53356-379

Duncan, P. J. (2000). *Russian Messianism: Third Rome, Revolution, Communism and After.* London: Routledge.

Freire, M. R., & Kanet, R. (2012). *Russia and its Near Neighbors: Identity, Interests and Foreign Policy.* UK: Palgrave Macmillan.

Gazprom Export. (2019). *Gas supplies to Europe*. Retrieved January 7, 2021, from Gazprom Export: http://www.gazpromexport.ru/en/statistics/

Goldmanis, M. (n.d.). *Soviet Military Expansionism and post-Soviet revival: Soviet and Russian military bases abroad*. Retrieved December 5, 2018, from Numbers Stations Research And Information Center: https://www.numbers-stations.com/articles/soviet-military-expansionism-and-post-soviet-revival-soviet-and-russian-bases-beyond-its-borders/

Kovacevic, A. (2009, March). *The Impact of the Russia–Ukraine Gas Crisis in South Eastern Europe*. Retrieved December 10, 2020, from Oxford Institute for Energy Studies : https://www.oxfordenergy.org/publications/the-impact-of-the-russia-ukraine-gas-crisis-in-south-eastern-europe-2/

Krasner, S. (1999). *Sovereignty: Organized Hypocrisy.* Princeton: Princeton University Press.

Kuczyński, G. (2019, March 26). *Russia’s Hybrid Warfare in the Western Balkans*. Retrieved January 6, 2020, from Warsaw Institute: https://warsawinstitute.org/russias-hybrid-warfare-western-balkans/

Minister of Foreign Affairs of the Russian Federation. (2016, December 1). *Foreign Policy Concept of the Russian Federation*. Retrieved from Minister of Foreign Affairs of the Russian Federation: https://www.mid.ru/en/foreign_policy/official_documents/-/asset_publisher/CptICkB6BZ29/content/id/2542248

Ministry of Foreign Affairs of the Russian Federation. (2000, January 10). *NATIONAL SECURITY CONCEPT OF THE RUSSIAN FEDERATION*. Retrieved from Ministry of Foreign Affairs of the Russian Federation: https://www.mid.ru/en/foreign_policy/official_documents/-/asset_publisher/CptICkB6BZ29/content/id/589768

Mirkovic, M. (2019, August 2). *Montenegro economy briefing: Overview of Foreign Direct Investment Trends in Montenegro*. Retrieved January 5, 2020, from China-CEE Institute: https://china-cee.eu/2019/08/02/montenegro-economy-briefing-overview-of-foreign-direct-investment-trends-in-montenegro/

Movchan, A. (2015, September 14). *Just an Oil Company? The True Extent of Russia's Dependency on Oil and Gas*. Retrieved March 5, 2020, from Carnegie Moscow Center: https://carnegie.ru/commentary/61272

Nikolovski, I. (2019, July 3). *Russia Still Has Cards to Play in North Macedonia*. Retrieved March 20, 2021, from Balkan Insight: https://balkaninsight.com/2019/07/03/russia-still-has-cards-to-play-in-north-macedonia/

Rosoboronexport . (n.d.). *Partner countries and joint projects*. Retrieved from Rosoboronexport : http://roe.ru/eng/export/bolgariya/

Rowley, D. G. (1999). "Redeemer Empire": Russian Millenarianism". *The American Historical Review, 104*(5), 1582-1602 .

Samorukov, M. (2019, November). *A Spoiler in the Balkans? Russia and the Final Resolution of the Kosovo Conflict*. Retrieved January 19, 2021, from Carnegie Endowment for International Peace: https://carnegie.ru/2019/11/26/spoiler-in-balkans-russia-and-final-resolution-of-kosovo-conflict-pub-80429

Stronski, P., & Himes, A. (2019, January). *Russia's Game in the Balkans*. Retrieved March 17, 2021, from Carnegie Endowment for International Peace: https://carnegieendowment.org/2019/02/06/russia-s-game-in-balkans-pub-78235

Thorun, C. (2009). *Explaining Change in Russian Foreign Policy: The Role of Ideas in Post-Soviet Russia's Conduct towards the West.* UK: Palgrave Macmillan.

Titunik, I. R. (1993). Review of The Paradise Myth in Eighteenth-Century Russia: Utopian Patterns in Early Secular Russian Literature and Culture, by Stephen Lessing Baehr. *The Slavic and East European Journal, 37*(3), 381-383.

Tomovic, D. (2007, June 6). *Russia Threatens Retaliation After Montenegro Joins NATO*. Retrieved Juin 15, 2018, from Balkan Insight: https://balkaninsight.com/2017/06/06/montenegro-faces-russian-retaliation-after-joining-nato-06-06-2017/

Wezeman, S. T., & Kuimova, A. (2018, December). *Bulgaria and Black Sea Security.* Retrieved January 5, 2019, from https://www.sipri.org/sites/default/files/2018-12/bp_1812_black_sea_bulgaria_1.pdf

Zivanovic, M. (2018, October 17). *Serbian Bishops Back Russian Patriarch on Ukraine*. Retrieved January 19, 2020, from Balkan Insight: https://balkaninsight.com/2018/10/17/serbian-orthodox-church-align-stance-with-russian-patriarch-10-17-2018/